فكرة التقدم

ماكان عليه وما آلت اليه

لطفي أدهم

لكل عصر من عصور الحضارة فكرة خاصة تسيطر عليه ويتسم بطابعها وتحدد اتجاهه وتعبر عن عقل المجتمع الذي نشأت فيه وتبين مدى ادراكه وتدل على تصوره لنجاح وموفقيه من مشكلاتها . وفي بيان قوة هذه الفكرة وامتداد سلطانها وشدة استيلائها على النفوس تسمو على البحث وتنزه عن النقد لانها تعتبر في ذلك الوقت من المبادىء المقررة والقضايا التي لا يرتقي اليها الشك ، فلا ينظر اليها من حيث هي فكرة سائدة فهي من أجل ذلك عرضة للدثور والفناء لانها وليدة ظروف متقلبة وبيئة ملابسات لا تني تتغير وانما ينظر اليها من حيث هي حقيقة خالدة مطبوعة في صفحات الكون مسطورة على جباه الاشياء فهي من الوضوح والابانة بحيث لا تتطلب تفكيراً ولا تستلزم بحثاً ولا تحقيقاً

وفكرة التقدم من قبيل هذه الافكار التي شغلت مكانة كبيرة ولعبت دوراً هاماً في سير الحضارة الغربية، ولم تكن مجرد نزعة طارئة او فكرة فلسفية رائجة وانما كانت عقيدة ثابتة مدة تقارب القرنين يسير الناس في مدارجها ويتقمصون بأسبابها وكانت في الواقع هي الايمان المحرك والقوى الدافعة في الحضارة والمحك الذي يقدر به نصيب المذاهب الاجتماعية من الصلاح والفساد والنفع والضرر ، وكانت جميع النظريات التي نشأت في ذلك العصر تستنجد بها وتتعلق بأذيالها لغلبة الاعتقاد بأن النظرية السياسية او الفكرة الاجتماعية التي لا تواتم فكرة التقدم لا تستطيع أن تستجمع عناصر البقاء ولا تتوافر لها دواعي الحياة

وقد كان السواد الاعظم من الناس في العصور الوسطى يتجهون بتفكيرهم ويفزعون بآمالهم الى الحياة وراء القبر ، وكانت الدار الآخرة هي مجال خواطرهم ومهوى أفئدتهم وكانوا ينظرون الى الاشياء بمنظار هذه الفكرة ويباريون الامور بمعاييرها ، ثم حدثت احداث زعزعت الثقة بهذه الفكرة وأزالتها من مكانتها العالية فهي وان كانت لا تزال طافية بالنفوس ولكنها أصبحت في العصور التالية فكرة غير رئيسية وأخذ الاعتقاد بحياة سعيدة هانئة في هذا الكوكب

الارضي قد تتيسر أسبابها وتدنو فطوفها للاجيال القادمة يحل محل فكرة السعادة المنشودة في العالم الآخر والكمال المرتقب وراء الموت وبذلك التحفت فكرة العالم الآخر بتلك الحكم الاخلاقية والمواعظ الدينية التي يرددها الناس بألسنتهم ولكنهم لا يستجيبون لها في أعمالهم ولا يبنون عليها أساس تفكيرهم وليس لها أثر مذكور في وزن الامور وتقدير القيم

***

وقد قامت فكرة التقدم في العصور الحديثة مقام الافكار الدينية ، ومعروف ان الدين في طليعة القوى المحركة للحضارة ولكن الدافع الى التدين قد يبدو في صورة التفكير السياسي والاتجاه الفلسفي

وفكرة التقدم في معناها الواسع تتضمن الاعتقاد بأن العالم يتدرج في سبيل الكمال تدرجاً شاملاً وينتقل على الدوام من حسن الى أحسن ويرتقي من منزلة الى منزلة أرقى ، ولكن المعروف ان أشياع فكرة التقدم كانوا ناقمين على حاضرهم يرمون ما في القوانين من نقص وعيوب وما يعم الحياة ويمتلىء به جنباتها من ضروب القسوة وألوان الظلم ، ولما كان المستوى الذي بلغته الانسانية هو نتيجة تطور قصي المدى بعيد الاصول استغرق عصوراً غير محدودة فاننا خلقاء ان نستخلص من ذلك ان حركة التقدم جد بطيئة وان بلوغ الانسان مرتبة الكمال المأمول مسألة موصولة بالمستقبل البعيد الذي يصعب علينا تصوره وإدراك كنهه ، وكان ذلك قمناً بأن يكف من حماستهم ويطامن من آمالهم

ولكن مفكري القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يلمحوا التقدم من هذه الناحية ولم يقيسوا مداه بألوف السنين ، وانما كان يغلب عليهم الامل في قرب اقبال عهد جديد للعدالة والاستنارة تتحقق فيه آمالهم وتصدق ظنونهم ولم يكن للمؤرخين الذي تعودوا اقتفاء اثر الانسانية واستقراء تاريخها فضل كبير في توطيد الفكرة والاشادة بها وكان أكثر انصارها من المفكرين السياسيين وأنصار المذاهب الثورية والانقلابات الاجتماعية وكانت انظارهم متجهة صوب المستقبل القريب بحكم مذاهبهم السياسية والغايات التي كانوا يعملون لتحقيقها وكانوا يستعينون بهذه الفكرة على مرارة الكفاح ويتقون بها آلام الهزيمة ، وكان يغلب على مصلحي القرن الثامن عشر والتاسع عشر الاعتقاد بامكان اصلاح المجتمع وعلاج عيوبه واستدراك نقائصه والانتقال من الفساد الطامي والاضطراب المستحكم الى الصلاح التام والاستقرار الكامل والخروج من الظلمة الحالكة الى النور المشرق للتلألؤ ، وكان هذا الايمان القوي بفكرة التقدم منطوياً في الحقيقة على حسن ظن بالطبيعة الانسانية وقابليتها للرقي والكمال

أما عامة الناس فكانت فكرة التقدم تقترن في أذهانهم بالتغير الاقتصادي الذي بدأت طلائعه وظهرت مقدماته في القرن الثامن عشر وبذلك الرقي الصناعي الذي توالت انتصاراته وعمت فوائده ويسر لهم استعمال السيارات واللاسلكي والمذياع والصور المتحركة ومكنهم من الاقتصاد في الاختراع والكشف ، وقد يبدو لنا أن نسخر من هذا التقدم الذي تعتبر دلائله وسماته أمثال هذه المظاهر البراقة والمرائي الخادعة ولكن لا نزاع في أن القرنين الاخيرين قد شاهدا براعة منقطعة النظير في تسخير قوى الطبيعة وترويض عناصرها وتطبيق العلم على الحياة اليومية واخضاعه لمستلزماتها وكان من أثر ذلك ان ظهرت حضارة علمية صناعية ليس لها مثيل في سالف العصور وغابر الحضارات وقد ادى ذلك الى استفاضة الثروة وتكاثر السكان على مثال غير معهود وانتشار الثقافة وتيسير اسبابها

***

وفي القرن التاسع عشر بسطت الحضارة الغربية سلطانها على العالم وكانت الحضارات الشرقية القديمة قد استنزفت قواها وضعف شأنها فلم تستطع ان تثبت لها وتقاوم تأثيرها ، واستطاعت الحضارة الاوربية كنوز العالم الجديد لتضخيم ثروتها وتكثير مواردها وتمكين اهلها من العيش الرغيد والنعمة السابغة ، واخذت الافكار السياسية والاجتماعية تمير البحار وتجوب الاقطار وتسل عملها وتسري مسراها في العقول وتنسخ الافكار القديمة والآراء البالية وذاعت مبادىء الديمقراطية وانبثت النهضات القومية وشعلت الامم تطالب بالحكومة الذاتية وتحققت حرية الرأي الى مدى بعيد وكفلها القانون وسمت الفكرة الانسانية وتاهضت فكرة الرق والعبودية واعلنت عليها حرباً شعواء ومطاردتها مطاردة عنيفة وبطلت العقوبات القاسية التي كانت تشوّه الحضارات القديمة وتزري بالطبيعة الانسانية وانتشر التعليم وشمل مختلف الطبقات وهذب عقلية الجماعات وصقل مداركها ، فالتقدم من هذه الناحية حقيقة لا سبيل الى نكرانها والمماراة فيها وليس حلم حالم ولا خيال واهم

ولكن لا ينبغي ان ينسينا ذلك ان هذا التغير الملحوظ والتقدم المشهود الذي نعتز به هو في ذاته تحول نسبي وليس نتيجة حتمية لتطور حيوي عام شامل لحياة الانسانية جمعاء فهو تقدم خاص موقوت منوط بمرحلة من مراحل الانسانية ودور من أدوار التاريخ وصنف من صنوف الحضارة ولا يقتضي ذلك ان يكون اكثر بقاء واشد استعصاء على عوامل الهدم ودواعي الفناء من الحضارات القديمة وهو لا يعفينا من ان نسائل انفسنا هل التقدم في ضروب الحياة المادية هو تقدم في المعنى الدقيق والتفسير الصحيح للكلمة ؟ وهل الانسان في العصر الحديث اسعد حالاً

وأنعم بالآ وأسمى نفساً وأرجح عقلاً من الانسان في سوالف العصور ومؤتنف الحضارات ؟

كثير من كبار المفكرين لم تفتنهم الحضارة الحديثة ولم يخلب ألبابهم بريقها وقد حذروا من عواقب الاندفاع في الكثير من نزعاتها وعابوا عليها الكثير من الاخطاء والنقائص وتطرف بعضهم فآثر العودة الى الماضي او نبذ الحضارة والفرار من مغرياتها ، وبعض المفكرين الذين أطالوا النظر وأجادوا البحث في أحوال تلك الحضارة تكشفت لهم عيوبها ودخائل ضعفها ورأهم ما قد يؤدي اليه تقدم الصناعة والاختراع من ارهاق للاجسام وأضاف للعقول وافناء للشخصيات وهبوط بالفن الرفيع والثقافة العالية ، وآثار مخاوفهم الافراط في استغلال موارد الطبيعة وافناء ذخائر الارض للربح العاجل والحاجات العارضة ، وقليل من المفكرين الآن من يجترىء على ان يمزج الرفه المادي بالتقدم لاننا نعرف حق المعرفة ان حضارة من الحضارات قد تكون في مظهرها الخارجي شاهقة البنيان ضخمة الثروة موفورة المرافق والموارد في حين أن حيويتها الاجتماعية وقوتها المعنوية في هبوط وانحلال وتدهور وهي تفقد في كل لحظة جزءاً من مدخر تقاليدها العالية وثقافتها السامية

***

ولم تساور أمثال هذه الشكوك أهل القرن الثامن عشر لانهم كانوا يثقون ثقة تامة بمبادئهم وساعد على تقوية تلك الثقة وحماها غوائل الشك انتشار فلسفة ديكارت ، فان طرافة فلسفته قائمة على انهُ يجعل العقل قوة منفصلة ناهضة بذاتها لا تخضع لاحكام الجسم ولا تتأثر بمؤثراته والعقل عنده في مكنته ان يحصل المعرفة التامة الاكيدة من الحقائق الواضحة البسيطة المودعة فيه والكامنة في كيانه والتي يستطيع ان يدركها بالبداهة المباشرة دون ان يركن الى السلطة والتقاليد او يرجع الى التجربة والمشاهدة ، وهذا هو الاساس الذي يتصوبهُ ديكارت ويثير باعادة النظر في مختلف العلوم في ضوئه ، ويرى ديكارت ان ذلك العلم الغزير والمعرفة المستفيضة والتقاليد الجمة التي يتكونّ من مجموعها تراث الثقافة الغربية وجميع الافكار والاعتقادات التي أفادها الناس من التجارب واقتنعوها من المشاهدات لا قيمة لها ولا غناء فيها فهي معرفة مدخولة يلتبس فيها الحق بالباطل ويختلط الغث بالسمين وهي لا تستحق ان نوليها عنايتنا ونوقف عليها بحثنا وعلينا ان نحل محلها المعرفة الحديثة التي لها دقة الرياضة وأحكامها والمستمدة من أشعة العقل الذي لا يعرض لهُ الخطأ ، وتفكير الرجل الكيس الاريب لهُ من القيمة والصحة أكثر مما في العلم المستق من الكتب والمدارس لانهُ قائم على الادراك البديهي المباشر المدلول على الصواب والموكل بالباب

وقد أثر هذا الاسلوب في التفكير تأثيراً بعيداً وفي ظلاله ترعرعت الافكار المجردة عن

الحضارة والتقدم والعلم والعقل ، وهذا الاعتقاد غير المحدود بقوة العقل ظاهر في أكثر ما كتبه فلاسفة القرن الثامن عشر عن المسائل الاجتماعية والسياسية وفي اعتقادهم ان الآداب لم يكن لها تأثير ذو بال في تقدم الانسان وانما الفضل كل الفضل للعقل والاختراع ومن ثم تحاملهم الفكري القرن الثامن عشر على الاديان وتشديدهم النكير عليها واعتبارها خرافات تعوق التقدم وترتد بالانسان الى الوراء وانها قائمة على الخديعة والقسوة ولم يخطر لهم أنها صادرة من اعماق الضمير وأنها صدى لعاطفة متغلغلة في أطواء النفس وحاجة من حاجات القلب الانساني واذا كان تاريخ الانسانية القريب والبعيد ممتلئاً بالسخف والمنكرات حاشداً بالضحايا البريئة فما أحرانا بالشك في حركة التقدم واليأس من طبيعة الانسان ولكن الحقيقة أن مفكري القرن الثامن عشر لم يعتقدوا بالتقدم المستمر المنتظم الحركات المتتابع الادوار وانما كانوا يؤمنون بتقدم فجائي للعقل الانساني مصدره الثورة الفكرية التي أحدثها ديكارت ، واستتباب سلطان العقل كان عندهم دليلاً على ابان عصر كله سعادة وخير ورخاء تحط به الانسانية قيودها الموهنة وتسمو على أحكام المصادفات وتنطلق في سبيل الحق والخير ثابتة الخطوات موفقة السعي ، وقد أوحى ذلك الى رجال الثورة الفرنسية محاولة إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة عمادها العقل وألهم مصلحي القرن التاسع عشر الاجتماعيين الاعتقاد بامكان تغيير نظام المجتمع

***

وقد كان لاخفاق الثورة الفرنسية رد فعل في عالم الفكر والسياسة ولكنه كان رد فعل وقتي وظل أكثر المفكرين السياسيين اثناء مبادىء عصر الاستنارة وظلوا يعتقدون بفكرة التقدم وفكرة الحضارة المطلقة القائمة على مبادىء صالحة لجميع الناس وجميع العصور

وقد امتاز النصف الاول من القرن التاسع عشر بمحاولة انشاء علم الاجتماع وجعله علماً مستقلاً يتوج جهود سائر العلوم وكان اقدر ممثلي ذلك العلم الحديث الفيلسوف اوجست كونت وهو أول من تناول بالتفصيل والاسهاب العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاخرى وعنده أن هناك تطوراً متتابع الحلقات مستمر الخطوات من العلوم التجريدية كالرياضة الى العلوم الاوفر نصيباً من التعيين والتخصيص مثل الفلك والكيمياء وعلم الحياة وعلم الاجتماع ، وتقدم علم الاجتماع يوضح المرحلة الاخيرة للتقدم العلمي ويجعل من الممكن ان تكون من ضروب المعرفة الانسانية كلاً عضوي التركيب متسق الاجزاء وهذا العلم الوضعي الذي يشمل علم الانسان وعلم الطبيعة الخارجية في علاقتها بالانسان يحل محل المذاهب القائمة على المعتقدات الدينية او نظريات ما وراء الطبيعة التي كانت لها الغلبة قبل أن تستتم الروح العلمية قوتها وتأخذ أهبتها ولذا

اشتد كونت في نقد آراء القرن الثامن عشر وعمل على نقضها لانها في رأيه متشبعة بافكار ما وراء الطبيعة فهي هادمة وغير صالحة للبناء وكان المنظور ان يؤدي به ذلك الى نبذ الافكار المجردة امثال فكرة التقدم وفكرة الانسانية وفكرة الحضارة وان يحصر تفكيره في الافراد والمجتمعات الخاصة ولكنهُ على النقيض من ذلك اصر على ان الانسانية هي الحقيقة الفذة وان الفرد في ذاته محض تجريد وان جميع التغيرات التي تطرأ على المجتمعات خاضعة لقانون التقدم وهو الحقيقة النهائية للعلم الوضعي الاجتماعي

ولما كان هذا الكلي المركب العلمي ثمرة الفلسفة الوضعية اجتماعيًّا في صميمه فقد تبع ذلك ان الطبيعة كانت تفسر بموجبه تفسيراً يلائم حاجات الانسان ويتجاوب مع مطالب المجتمع ولا ينظر اليها من حيث هي كل شامل المجتمع نفسه جزء منهُ ووظيفة العلم عند كونت مقصورة على خدمة الانسانية وقد أدى ذلك الى تقويم الطبيعة بالقيم الانسانية ولشوه ديانة الانسانية ولم ترق هذه النزعة الدينية مفكري القرن التاسع عشر وأثارت شكوكهم في صحة فلسفة كونت

وحوالي سنة ١٨٤٨ أخذ تأثير الفلسفة المثالية الالمانية يحتضر شيئاً فشيئاً وأخذ تيار الفلسفة المادية يشتد ويعلو وراجت افكار بختر وظهرت نظرية التطور وأثرت تأثيراً شديداً في التفكير الاجتماعي ويبدو ذلك واضحاً في فلسفة هربرت سبنسر اكبر ممثلي علم الاجتماع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عند الكثيرين ، ونظرية التطور هي محور بحثه واساس تفكيره وهو يعتبر التقدم الاجتماعي فرعاً من فروع قانون التقدم الكوني العام وركن الحضارة هو أحد مظاهر ذلك القانون الذي يشمل الخليقة باسرها ، وهنا نرى فكرة التقدم في اقصى امتدادها وارسخ تطبيقاتها فهي لا تشمل حياة الانسانية وحدها وانما تشمل نظام الطبيعة برمته

***

وهناك شيء من التناقض بين تصور مفكري القرن الثامن عشر للتقدم والتفسير العلمي الذي فسره به مفكرو القرن التاسع عشر فقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر يضعون الانسان في مرتبة اسمى من مرتبة الحيوان وينظرون اليه منفصلاً عن الطبيعة ويجعلون العقل مبدأ تطور الحضارة ولكن لنظرية النشوء والارتقاء اعادت الانسان الى احضان الطبيعة ونسبت تقدمه الى عملية آلية تقوم بها قوى الطبيعة العمياء ودوافعها الحقيرة التي تسيطر على العالم المادي في مختلف صوره والعقل نفسه عضو كسائر الاعضاء تكامل تركيبه وتطور نموه تحت تأثير جهاد الانسان في الملاءمة بين نفسه وبين البيئة والتقدم هنا لا يعرف الاخلاق ولا الرحمة لانهُ قائم على تنازع البقاء وتطبيق ذلك على حياة الانسان يهدم الكثير من مثله العليا ويبدد احلامه في العدالة

والمساواة وهي من خصائص فكرة التقدُّم القديمة ويؤدي الى الجشع والانانية وكان على المفكرين الذين قبلوا نظرية داروين في الانتخاب الطبيعي ان يواجهوا نتائج التناقض السيق بين اعتقاداتهم العلمية ومثلهم العليا الاخلاقية وكيف أن الانسان ذا الآمال البعيدة والاحلام السامية هو ابن الطبيعة الشاهرة السلاح الموَّلة الاياب التي تأكل أبناءها وتضحي بذريتها ، وقد عني بذلك التناقض العلامة هكسلي والتقدُّم في رأيه يقوم على تعطيل عمل التطوُّر الكوني في كل خطوة من خطواته ومرحلة من مراحله والاخذ بالتقدُّم الاخلاقي ، وطبيعة الكون عنده متنافرة لطبيعة الاخلاق والحركة الكونية لا ترمي الى خير الانسان والطبيعة لا تعرف فكرة الواجب ولا تحفل بالآداب ، والحقوق عندها قائمة على القوى المفترسة المستضرية

ولكن اذا كان الامر كذلك فان الامل ضعيف في قلب الانسان على حركة الطبيعة المستمرة وخطتها الابدية ولا مناص للانسان في هذا الموقف الاَّ في العودة الى الاعتقاد بقوة شاملة صمدية خارجة عن حدود الزمان والمكان او الالتواء على اليأس الاليم وتوديع الآمال الخائفة وتوطين النفس على احتمال الحياة والصبر على احداثها حتى يقبل الموت وتنتهي اللعبة أو يعمل على الاستفادة من الظروف جهد الطاقة ويجاري سائر المخلوقات في الاخذ بقانون المحافظة على الذات دون ان يتورَّع عن الاجرام او يعف عن الشر

***

وهكذا كان مصير فكرة التقدم التي اوحت الآمال الكبار والاماني الحسان وانتهت باخلاف الظنون وخيبة الآمال وتبعها الشك في مقدرة العقل نفسه على الاصلاح والخلاص من ثوائر الاهواء ونوافر الغرائز وقد شجع ذلك انتشار النزعات المتمردة على العقل التي بدأت في اواخر القرن التاسع عشر

وعلى هذا الاساس قام مذهب الذرائع (البراجمتزم) والمذهب الحيوي ومذاهب تحليل النفس وكلها ترمي الى اضعاف الثقة بالعقل وعلم الاجتماع نفسه اخذ يوجه التفاته الى هذه الناحية التي تبدو واضحة في نفسية الجماعات وغريزة القطيع . وقد كانت الحرب الكبرى آخر صدمة عنيفة اصابت فكرة التقدم ومهدت السبيل لانتشار المذاهب القدرية التي ترى ان الحضارة الحديثة مشرفة على الاضمحلال والزوال وانها ستلحق بالحضارات البائدة مثل مذهب شبنجلر الذي تولد بالغرب وأثر تأثيراً كبيراً في التفكير التاريخي